من تراب (١٨٧) الرجاء قاطرة الإنسانية ! (*) الطريق!

يبدو أن الرجاء تطلع ملازم لحياة الآدمى الواعية .. لأن حياته تمتد امتداداً يستهدف الوعى .. له دائما أحوال أفضل فى هذه الدنيا أو فى حياة أخرى عند من يرجو قيامه بعد الموت .. حتى المنتحر ينتحر على أمل الراحة من حياة شقية تعسة لم يعد يحتملها، والمريض بمرض قاتل لا ينقطع أمله كلية فى تكذيب يأس اليائسين من شفائه، والمحكوم عليه بالإعدام لديه أمل فى النجاة من الموت فى آخر لحظة، والفدائى فى إقدامه على الموت الراجح أو المؤكد يأمل فى المجد وحسن الأحدوثة .. لا يفقد الآدمى كل رجاء فى كل اتجاه إلا إذا أيقن أنه قد سدت أمامه كل الأبواب .. عندئذ يمزقه اليأس تماما ما لم يكن معه بقية من دين!

هذا المعنى العام للأمل ملازم للآدمى منذ وعى وعيه المعروف لنا الآن .. وهو معنى موجود فى كل ما نفعله عامدين .. بل فى كل ما نفعله غير عامدين، وأيضا فى كل ما أهملناه أو ما لم نقم بفعله مما يمكن أن تكون له نتائج أو آثار علينا أو على أحبابنا .. الأمل موجود دائما لدى أعلم العلماء ولدى أجهل الجهلاء أيا كان الزمان أو المكان أو الجنس أو اللون .

وجميع ما يسمى بالحقائق العلمية ينطوى على آمال إيجابية أو سلبية فى مزيد من البحث والتدقيق فى الوسائل والحساب والرصد والمراقبة .. قد يزيد هذه الحقائق وكادة وعمقا وسعة، أو قد يثبت أو يكتشف ما يدعو إلى إدخال تعديل عليها أو على نظريتها أو ما يكذبها أو يدعو إلى العدول

(*) المال ٢٠٠٩/١/٥

عنها .. لا حدود لآمال العلوم فى جدوى المراجعة ودقتها والعودة إلى فحص الحقائق باستمرار .. إذ ليس فى هذه شىء نهائى لا يجوز عليه الفحص أو لا يخضع لإعادة النظر والتصحيح والتطوير .

لا نهاية لميدان العلم والمعرفة لأنه لا نهاية لآمال الآدمى فى عقله وسعيه، ولا نهاية لعقل الآدمى وسعيه لأنه لا نهاية لآماله فيما هو أفضل مما بين يديه الآن .

إن مستقبلنا هو آمالنا وليس إلا آمالنا التى نرجو أو نطمع فى تحقيقها .. فحياة الآدميين لا تتكرر فى قوالب وأنماط ثابتة إلا إذا أصبحت آمال الآدميين سلبية محصورة فى إبعاد واستبعاد ما يكذب ما معنا من الحاضر وفى استمرار إقناعنا بأنه ليس فى الإمكان إيجاد شىء أفضل مما كان . كان ذلك الموقف ممكنا فى الماضى لقرون عديدة فى ظل حضارات الرعى والزراعة حين كانت رتابة الزراعة والرعى مطبقة على آفاق الآدميين المادية والمعنوية لتعيش غالبيتهم الغالبة وتموت فى الرعى أو فى الزراعة أو فيهما. تغيرت تلك الحال إلى عكسها فى البلاد المتقدمة وامتد تيار هذا التغير إلى البلاد غير المتقدمة .. فالحضارة الحالية حضارة صناعية تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على الخدمة الآلية لا على اليد العاملة، وصارت الزراعة نفسها آلية أو تكاد، وتدخل العلم والصناعة بثقلهما فى تربية الماشية والدواجن والحيوان فى البر والبحر، وتخلص وعى الإنسان وآماله فى البلاد المتقدمة من إطباق رتابة طبيعة الزراعة والرعى - فأصبح مستقبل الإنسان هو آماله وآمال الإنسانية المستقبلة لا الحاضرة ولا الماضية، ومن هنا صار الرجاء هو قاطرة الإنسانية الدافعة لها إلى الأمام .